

بول ريكور و هيرمينوطيقا الإرتياب، من أنطولوجيا الفهم إلى ابستيمولوجيا التأويل

د/ الشريف زروخي

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

c.zerroukhi@unv-setif2.dz

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

مقدمة:

تعد إسهامات بول ريكور Paul Ricoeur (1913-2005) في حقل الدراسات الهرمينوطيقية (التأويلية)، من أهم المحاولات المتميزة والمسؤولة، لأنه عمل على بناء جسور التواصل والحوار بين مختلف التيارات في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية والأدبية، كما أنه من بين التأويليين الذين لم يكتفوا بالتنظير وإنما شددوا على ضرورة ممارسة الفعل التأويلي وتوسيع دوائره ليشمل النصوص الدينية والخطابات السياسية والبنى الثقافية والذاكرة والتاريخ، واللغة والأسطورة، عبر تأسيس أنطولوجيا للفهم من خلال ابستيمولوجيا التأويل، مما يجعل من هيرمينوطيقاه محاولة لاكتشاف الإنسان في صورته الكلية ككائن عارف وفاعل ومنفعل، وبهذا ترتبط الهرمينوطيقا بالفينومينولوجيا في حقل اللغة- حقل الرمز والمعنى والخطاب والنص- ولأن اللغة تضعنا أمام الوجود. فقد سعى بول ريكور إلى وضع نظرية في الفهم تقوم على ممارسة النقد على كل أشكال التأويل، فكأنه أراد إحداث ثورة في الدراسات الهرمينوطيقية لأنها لم تعد منهج لفهم النصوص وتفسيرها فحسب، بل أداة لفهم الذات المؤولة لذاتها من خلال كل ذات انتجت نصا، ويكون بهذا قد قوض الكوجيتو الديكارتي، وغير في معادلة الهرمينوطيقا فبدلا من السؤال عن الشروط المعرفية التي تستند إليها الذات في فهم النصوص أو في فهم الإنسان في التاريخ، فينبغي التساؤل عن جوهر الكائن الذي يسكنه الفهم لتصبح الهرمينوطيقا جزءا من تحليل بنية الكائن، فمن السؤال عن كيفية فهم الوجود إلى السؤال عن شروط الفهم، ومن معالجة مشكل فهم الوجود فينومينولوجيا إلى الاهتمام بإشكالية وجود الفهم (كينونة الفهم) هيرمينوطيقيا. لهذا السؤال المشروع هو هل كيف تمكن بول ريكور من تجاوز

المشكلات المنهجية المترتبة عن التحول من الفينومينولوجيا إلى الهيرمينوطيقا ومن مركزية المؤلف إلى مركزية القارئ؟

الكلمات المفتاحية: الهيرمينوطيقا، النص الديني، التفسير، الاستيمولوجيا، الفهم.

أولاً: بول ريكور وهرمينوطيقا الارتباب:

يعد ريكور Ricoeur Paul (1913-2005) حلقة وصل بين مختلف التيارات في حقل العلوم الإنسانية، لأن هيرمينوطيقاه تحاول اكتشاف الإنسان في صورته الكلية "ككائن عارف وفاعل ومنفعل"¹، وبهذا ترتبط الهيرمينوطيقا بالفينومينولوجيا في حقل اللغة، ومن الأمور التي دفعت بريكور لأن يهتم بحقل اللغة واللسانيات، رحلته إلى أمريكا لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً من التدريس، وما يبرر غزارة التأليف هو معاشته لفلسفة مختلفة تماماً عما كان في باريس، واحتكاكه بفلسفة اللغة في أمريكا مما فتح له آفاق التأسيس لفلسفة كونية.²

عمل بول ريكور على وضع نظرية في الفهم تقوم على ممارسة النقد على كل أشكال التأويل، تكون بمثابة ثورة في الدراسات الهيرمينوطيقية، لأنها لم تعد منهجا لفهم النصوص وتفسيرها فحسب، بل أداة لفهم الذات المؤولة لذاتها، ويكون بهذا قد قوض الكوجيتو الديكارتي لأنه لا يصمد أمام النقد، رغم أن هيجل حسب جون غريش Jean Greisch اعتبر ديكارت بمثابة مكتشف أرض جديدة للتفكير وواضع أسس التفكير العقلاني، وفي نفس الوقت يكون قد وجّه ريكور نقداً لفينومينولوجيا هوسرل، لكنه لم يسع إلى تجاوز الفينومينولوجيا عبر الهيرمينوطيقا، وإنما سعى إلى تطويرها، كما بدأ شقّ حياته الفكرية بين اتجاهين، الفينومينولوجيا والوجودية، بين مارسيل وهوسرل، وظلت العلاقة بينهما إلى غاية (1973)، إذ لا يمكننا القطع inseparable مع فينومينولوجيا هوسرل أو الفصل، لاشتراكهم في نفس الموضوع. هذا ما يبرر لجوء ريكور إلى ما يسميه "تطعيم" greffe الهيرمينوطيقا بالفينومينولوجيا منذ 1960م. وهي سنة تعتبر في مساره الفكري بمثابة القطيعة النهائية للفصل بين لحظتين في أعماله، لحظة كتب فيها فلسفة الإرادة، ولحظة طعم فيها الهيرمينوطيقا بالفينومينولوجيا،

¹ - هانس روبرت ياوس، جماليات التلقي، ت رشيد بن جدو، دار النشر لقااهرة، مصر، ط2004، ص 87

² - مطاع صفدي، بول ريكور أخيراً، مجلة الفكر العربي، مركز الإنماء القومي، بيروت باريس، ع104، 105، 1998، ص142.

محاولا التأسيس لمنهجية متكاملة بإمكانها أن تفهم رمزية الشر، التي تخترق الأساطير (Mythes)³. يقول عن أصل الهيرومينوطيقا: "لقد تشكلت المشكلة الهيرومينوطيقية قبل ظاهراتية هوسرل بكثير، وأنه من أجل هذا أتكلم عن التطعيم. ويجب القول أنه تطعيم متأخر."⁴ لأن آلية الفهم لا تعكس وضعية وجودنا في الوجود بقدر ما تكشف لنا عن إمكانات أخرى لوجودنا في هذا العالم، كانت متخفية قبل عملية الفهم والتأويل. وينطلق ريكور من تساؤل أساس: لماذا لا تستطيع الذات أن تفهم ذاتها إلا عن طريق تأويل الحكايات الثقافية الكبرى؟

تهتم الهيرومينوطيقا بسؤال معنى الوجود، وبالخبرة الإنسانية في التاريخ، ولا يمكننا بلوغ الفهم، إلا عبر تأويلنا للوسائط (les médiateurs)، والرموز (les symboles)، في النصوص. "لأن المعنى يمتاز بالتحويل médiatisée". هذه هي نقطة انطلاق الهيرومينوطيقا، لهذا نجد ريكور يؤكد مرارا على ضرورة التفكير انطلاقا من اللغة لأنها بوابة المعنى، وكل باحث مطالب بإدراك أبعاد اللغة والتفكير في طبيعة اللغة بامتلاك أدوات التأويل بكونه: "فن الفهم مطبقا على مجموعة من المظاهر، والشواهد، والآثار، حيث الكتابة هي الصفة المميزة له."⁵ من هنا وجه ريكور نقدا لهيدجر في مقاربته «الوجود والكينونة»، معتبرا طريقته بالسبيل القصير، مقترحا السبيل الطويل، وبهذا يكون قد غير في معادلة الهيرومينوطيقا. فبدلا من السؤال عن الشروط المعرفية التي تستند إليها الذات في فهم النصوص أو في فهم الإنسان في التاريخ، ينبعي التساؤل عن جوهر الكائن الذي يسكنه الفهم، ومن السؤال عن كيفية فهم الوجود إلى السؤال عن شروط الفهم، ومن معالجة مشكل فهم الوجود فينومينولوجيا إلى الاهتمام بإشكالية كينونة الفهم هيرومينوطيقيا، لا كتصور نفسي وإنما كتصور فينومينولوجي يراعي خصوصية انفتاح الكائن على ذاته وعلى الوجود.⁶

وقصة الهيرومينوطيقا هي سرد لقصة الإنسان المؤول الذي يسيطر على الكون بمفاهيمه وتأويلاته، لتصبح الهيرومينوطيقا مغامرة منفتحة، تمكن الناس من الخروج من حالة سوء الفهم والخلاف، والخروج من هذا الوضع يقتضي الهيرومينوطيقا كفن يوسع دائرة الاختلاف لتحقيق فهم أفضل، وذلك

³ -François Dosse, Paul Ricoeur, Un philosophe dans son siècle, Armand Galin, Paris, 2012, p70

⁴ - بول ريكور، صراع التأويلات، دراسات هيرومينوطيقية، ت منذر عياشي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2005، ص33.

⁵ - Poule Recoure, Du Texte à l'action, Seuil, 1968, p.160

⁶ - ISABELLE BOCHET, Augustin dans la pensée de Paul Ricoeur, Ed, Facultés jésuites de paris, 2003, p15

بتفكيك العلاقة بين المنهج والحقيقة، فالمنهج لم يعد ضمانا لبلوغها على طريقة غادمر، لأن الحقيقة صارت نابعة من الذات مرتبطة بتجربة الإنسان التاريخية، وهي لقاء بين أسئلة الحاضر وتراث الماضي، وتتكون بفعل انصهار أفق الحاضر في أفق التاريخ، لهذا ألح ريكور على موت الصنم ليحيا الرمز، لأن في الرمز ما يدعو إلى التفكير.⁷

الهرمينوطيقا شكل من أشكال ممارسة النقد والتفكيك ثم البناء، وقد استفادت من جهود نشته وماركس وفرويد، ورواد مدرسة فرانكفورت وفوكو، دولوز، دريدا، وتحت تأثير مايسمهم ريكور الفلاسفة التأسيسيين، رأى أنه ينبغي على الإنسان أن يسكن العالم في صورة شعرية، والفيلسوف المؤول يبحث عن الإيمان الخالص، لأنه يملك حرية العودة إلى الأصول بكل استقلالية، يريد أن يجعل الإلحاد طريق الإيمان. هذا الموقف جعل البعض يطلق على ريكور اسم "الفيلسوف المسيحي philosophe chrétien".

ب-التفكير عبر التماسف طريق فهم النص الديني: هيرمينوطيقا ريكور رفض لأنها القارئ وأنا المؤلف، وتعترف بعالم النص وأناه، لكن أن نصل لحظة "أنا" النص، ينبغي التواصل مع النصوص تواصلًا نقديًا قبل ممارسة فعل التأويل، هذا ما يعرف عند ريكور بالتماسف distancing "كلحظة نقدية معاصرة للخبرة الإنسانية، وتفتح لنا فضاء التفكير المتضارب".⁸ ويقصد به ترك مسافة بيننا وبين النص لكي لا نقع في شرك القراءة الأيديولوجية، وهي القاعدة التي وجدناها في فينومينولوجيا هوسرل (الإيبوخية)، ليصبح النص اتصال عبر المسافة. هذا هو كوجيتوريكور المجروح cogito blessé يقول عنه جان غريش Jean Grisch في كتابه «بول ريكور وتشرد المعنى Paul Ricoeur. L'itinérance du sens» «إنه يمثل اللحظة النقدية»⁹. ولا يعتقد في إمكانية قدرة الذات على معرفة ذاتها عبر الحدس المباشر، والمعرفة مشروطة بالمرور عبر كل الوسائط الثقافية، والإنسان في كوجيتوريكور، يحاول أن يكون رغم كل ما يهدد وجوده، رغم محاولة استبدال الإنسان بالآلة، والإنسان أنتربولوجيا هو "تمزق مؤثر بين لامتناه يفتح الآفاق بلا حدود وبين متناه يدخل منه الشر إلى البنية الوجودية للإنسان،

⁷ -Pierre.Olivier Monteil, Ricoeur Politique, Presses universitaires de Rennes, France ,2013 ,p15

⁸ -Paul Ricoeur ,La Métaphore vive, Le Seuil, 1975.p398/399.

⁹ -Jean Greisch ,Paul Ricoeur ,L'itinérance du sens ,Op. Cit ,2001 ,p55.

فيعيش الإنسان هشاشة هذا الوضع المؤثر شبه المأساوي على الصعيد العملي والعاطفي"،¹⁰ أما الإنسان من الناحية الانطولوجية، فيتأرجح بين المنفتح اللامتناهي للطموح والتناهي المحدود للواقع، هذا الجدل بين الحدين يجعل اللاتناسب الوجودي أمراً عسيراً يعيشه الإنسان كهشاشة مستمرة، تجعل الانتقال من إمكانية الوقوع في الشر (le mal) إلى اقتراف الشر ممكنة في كل لحظة عند كل إنسان.

واعتمد ريكور لتجاوز الإشكالية الحل الذي قدمه كانط (Kant): "فبين طموح الإنسان إلى سعادة لامتناهيّة وواقع طبعه المتناهي هناك لاتناسب بنيوي تخترقه لتحوّله إلى توازن بين الجزئي والكلي فكرة كانط باحترام الشخص الإنساني كغاية".¹¹ ويقدم لنا ريكور صورة عن التناقض الحاصل في الواقع المعيش واقع المعاناة، لما تسيطر على الإنسان الأبدية المهددة بالعدم في كل لحظة، فبحث عن الحل داخل النص الديني. لأنه قادر على أن يقدم لنا إجابات مرضية وعقلانية تبرر لنا طبيعة الصراع بين الخير والشر، وبين السعادة والألم، فنجدّه في «رمزية الشر symbolique du mal» يقوم بقفزة كبيرة خارج الفينومينولوجيا، بل خارج الفكر الفلسفي العقلاني، وحجته في ذلك أن الفلسفة عليها ألا تتوقف في منتصف الطريق، إذ عليها أن تحاول أن تفهم كل شيء حتى الدين نفسه.¹² ودعوة ريكور Paul Ricoeur الفلاسفة إلى الإهتمام بالنصوص الدينية هدفه البحث عن الإنسان في التراث، لكن ينبغي التواصل عبر التماسف.

إن حديث ريكور عن التماسف لا يعني إمكانية التخلي عن الانتماء وإنما إمكانية إقامة مسافة معه، فندخل دائرة صراع الذات مع نفسها في صورتها الثقافية، فنحن في صراع دائم مع موروثنا نقرب ونبتعد منه، لتصبح مهمة التأويل أو الهيرمينوطيقا تقرب البعيد في الزمان قريباً، والتماسف يصبح أول شرط لعملية الفهم، ومن بين مهمات التأويل توضيح الملتبس وفك الغموض الذي يغلف الكثير من الاشارات والرموز، وذلك من أجل فهم أفضل من جانب المخاطب. كما أن التأويل يفتح سبل أخرى للتأويل تكون ممكنة، ليصبح القارئ أكثر انفتاحاً وقبولاً لقراءات متعددة لا يمكن تجنبها. والتأويل يضع أمام القارئ جملة من الحجج يعتمد عليها في نقاشاته مع الخصم، ويعلمنا درساً مهماً هو:

¹⁰ - جورج زيناتي، ضمن مقدمة كتاب بول ريكور، الذات عينها كآخر، مصدر سابق، ص 22

¹¹ - جورج زيناتي، ضمن مقدمة كتاب بول ريكور، الذات عينها كآخر، مصدر سابق، ص 15.

¹² - Olivier Able, Paul Recoure (La promesse et la règle), éditions Michalon, Paris, 1996, p20.

الاعتراف بأن وراء كل تأويل يبقى هناك دوماً عمق لا يمكن ولوجه، معتم يخفي دوافع شخصية وثقافية لا تنصب، لم يتوقف الفاعل قط عن أخذها بالحسبان.¹³

توجد عدة معانٍ للهيرمينوطيقا فقد تكون بمثابة النظرية المعيارية للتأويل تفترض قواعد ينبغي إتباعها والالتزام بها في فعل القراءة، كما هو شأن بعض المؤلفين من أمثال دانهاور، شلاير ماخر وديلتاي، كما يمكن أن تأخذ صفة التأمل الفلسفي الذي يتجه صوب ظاهرة الفهم. عبر تأويل التجارب الانسانية التي كونها حول الوجود. هذا النوع من الهيرمينوطيقا هو الذي انتشر في القرن العشرين. يقول جان غراندان: "من أكبر صناعات هذا التأمل الهيرمينوطيقي نجد هيدغر، غادامير، ريكور".¹⁴ كل هؤلاء نظروا للهيرمينوطيقا على أنها تحول متميز في الفينومينولوجيا، وريكور فكر عبر التماسك لأنه افترض في نظر جورج زيناتي "وجود معنى ظاهر ومعنى باطن في كل رمز أو نص، وإن عمل المؤول اكتشاف المعنى الباطن لأنه المعنى الحقيقي. الرمز يعطينا الفرصة للتفكير ولحل شيفرة كل الأساطير القديمة التي ورثناها من حضارات متعددة".¹⁵ ويبدو أن ريكور حاول دراسة كل الأساطير لتحديد بداية خطاب المقدس، معتمداً التأويلية كمحاولة لفك شيفرة الرموز التي تحملها الأساطير، وعدم الاكتفاء بالمعنى العادي السطحي المؤلف المباشر، وإعمال الفكر لبلوغ المعنى الأعرق الذي هو ما كان قصده الرمز بالأساس، وليس المعنى السطحي المبتذل. وهذا لا يعني أن الهيرمينوطيقا مجرد تمظهر من تمظهرات الفينومينولوجيا، لأن ريكور أكد على أن العلاقة بينهما علاقة توتر دائم، يقول: "الهيرمينوطيقا هي محاولة لقلب الفينومينولوجيا لا إلغائها".¹⁶

حاول ريكور التأسيس لأنطولوجيا الفهم من خلال ابستمولوجيا للتأويل، وذلك بممارسة فعل النقد على كل القراءات والتأويلات لمعرفة مدى قصورها، وهذا المنهج له انعكاسات هامة في موقفه الفلسفي من كل القضايا التي عالجها، سواء أعلق الأمر بالحقيقة وما تبعها من قضايا المعنى والذات والزمن، أم بمسألة النص الديني وما ترتب عنه من انحرافات نتيجة سوء التأويل. النابع من ادعاء امتلاك الحقيقة، لهذا يقترح علينا ريكور ضرورة تجنب الحديث عن الحقيقة المشتركة vérité

¹³ - بول ريكور، الذاكرة التاريخ النسيان، ت جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2009، ص501/500.

¹⁴ - جان غراندان، المنعرج الهيرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ت عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2007، ص137.

¹⁵ - جورج زيناتي، ضمن مقدمة كتاب بول ريكور، الذات عينها كآخر، مصدر سابق، ص 15/16

¹⁶ - Paul Ricœur, Philosophie de la volonté, Tome II, Finitude et culpabilité, Aubier, 2 volumes, 1960, p571.

partagée، والتركيز على الحقوق المشتركة داخل الدين، على طريقة سبينوزا الذي دافع على حقيقة الانوار lumières، التي لاتتعارض مع روح الأديان (les esprits religieux).¹⁷ الحقيقة تظل متعالية (transcendante)، ولإنزال الحقيقة من تعاليمها ينبغي فتح نقاشات عامة حول الحقوق، لوجود نماذج متعددة، لهذا يقول: "علينا أن نخرج من ذاتنا وننتفتح على الذوات الأخرى، لأنها تملك تصورا مغايرا يغني البشرية"¹⁸ ولهم ظاهرة العنف الديني ينبغي إعادة تفكيك تراث الحروب الدينية، وتأسيس التسامح على الاختلاف.

أ- الهيرمينوطيقا تحطم مقولة المركزية: الهيرمينوطيقا من الفلسفات المعاصرة على الرغم من قدم المصطلح فهي: "علم نقد النصوص الإنجيلية وتأويلها".¹⁹ تختلف عن معنى التأويل (l'exégèse) يعني -التأويل- في صورته التطبيقية، أما الهيرمينوطيقا فتعني نظرية التأويل اتسعت دائرتها لتشمل جملة من الفضاءات المعرفية مثل الفلسفة، التاريخ، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، فلسفة الجمال، النقد الأدبي، الفلكلور.²⁰ وقد أكد جان لاکروا على هذا التوسع والانتشار للهيرمينوطيقا في قوله: "إن الفلسفة كلها قد صارت منذ نيتشه تأويلا فحسب".²¹ وعلاقة الفلسفة بالهيرمينوطيقا تبدأ من لحظة نيتشه الذي تمكن من إحداث قطيعة في الفلسفة الغربية بين ما هو كلاسيكي وبين ما هو معاصر، أو بين الفلسفات الميتافيزيقية التأملية والشمولية النسقية، ليؤسس لفلسفة الهدم والنقد على الرغم من أن كيركغارد المعاصر له، قد سبقه من حيث الكتابة زمينا في فلسفته الوجودية، والتي تتقاطع وفلسفة نيتشه، لكن تأثير فلسفة كيركغارد لم يكن له الأثر العميق كما كان لفلسفة نيتشه، إلا بعد إحيائها من قبل نيتشه ذاته في كتاباته.

إن المشكلة الأساسية التي تناولتها الهيرمينوطيقا، هي محاولة الإجابة عن الكثير من الأسئلة حول طبيعة النص وعلاقته بالتراث وبمؤلفه، وذلك بالتركيز على الزوايا التي أهملت وهمشت في دراسة

¹⁷ -André la cocque ,Paul Ricœur, Penser la Bible ,Editions du Seuil ,Paris, 1998 64p,

¹⁸ -Paul Ricœur, La pensée en dialogue ,Op. Cit.p16

¹⁹ -Dictionnaire ,encyclopédique pour la maitrise de la langue française la culture classique et contemporaine ,Larousse 2001 ,mot herméneutique.

²⁰ -Palmer Richard,:Hermeneutic ,North WESTERN, UNIVERSITY ,PRESS EVANSTON, 1969 ,P.34.

²¹ -لاکروا جان، ريكور فيلسوف المعنى، في كتاب نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة، ت يحي هويدي، وانور عبد العزيز، دار المعارف، القاهرة ، 1975، ص45.

النصوص الكبرى منذ أفلاطون حتى العصر الحديث، واقترن العصر الحديث بلحظة الكوجيتو الديكارتي لحظة تشكل الأنا الغربي، ليستمر في التبلور إلى لحظة كوجيتو هوسرل في القرن 20م، بإثباته باعتباره أولاً "أنا فينومينولوجيا" و"أنا موجود" ثانياً، وبهذا عُدَّ هوسرل فيلسوف إلتقاء بين المثالية والواقعية التي تشكلتا على عاتق فلسفة ديكارت. ومنهج هوسرل ارتكز على حقيقة أن الشعور قصد متبادل بين الذات والموضوع، الأنا والآخر، العقل والتجربة.²² والظاهرية صورة من صور تجلي الوعي الأوروبي، لأنها جعلت من الذات مصدر قيمة الأشياء ومعناها، فهي التي تقوم بفعل التأويل Auslegung بالألمانية، وكان لهذه الفلسفة تأثير على تلامذة هوسرل في حقل الهرمينوطيقا المعاصرة، فقد حاول بعضهم تطبيق الفينومينولوجيا في فضاء العلوم الإنسانية، فبحثوا في علاقة الذات المؤولة بالموضوع المؤول من خلال فعل القراءة، نجد هذا عند هيدغر، ماكس شيلر، مدرسة فرانكفورت L'École de Francfort وخاصة عند هابرماس وبولتمان وغادامير Gadamer، وعند فيلسوفنا بول ريكور. الذي ترجم كتاب هوسرل «الأفكار Ideen» إلى اللغة الفرنسية.

ظل هوسرل حاضراً بقوة في أعمال ريكور، لكنه سعى إلى التحرر من فينومينولوجيا هوسرل عبر النقد، يقول ريتشارد كيرني: "تأويلية ريكور تعرض الظاهراتية لإدراك حدود وعثرات الوعي جذرياً، وهي أيضاً تفتح الفكر على عالم اللاوعي والوعي الحاد، وهذا الانعطاف التأويلي خلال معاني الرموز المقموعة أو المخبوءة يسبق ويتجاوز ثورية الوعي الحدسي بالضرورة."²³ وتأويلية ريكور مبنية على اعتقاد أن الرمز يحفز الفكر والرمز يمنح المعنى.²⁴ ومن بين الإنتقادات التي وجهها ريكور للظواهرية نشير إلى نقد أنموذج الوعي المثالي عند هوسرل. ورفض ادعاء هوسرل القول بؤسس معرفية مطلقة يمكن بلوغها عبر ما يعرف (بالإبوخية) أو تعليق الفروض تماماً. "ونقد فكرة القول ببداية بلا فرضيات" تنطلق من ذات مباشرة لعمل الوعي، تحت وهم أن هناك نسق من الحدس الممتلئ حيث إمكانية المعنى يمكن إختزالها إلى جوهر خالص تنطوي عليه الذاتية المتعالية.²⁵ ونحن في نظري ريكور نتواجد في أفق تاريخي لغوي حيث المعاني تسبق تشكل ذاتنا الخاصة، والتفسير تفسير باللغة قبل أن يكون

²² - ينظر حسن حنفي، الظاهريات وازمة العلوم الأوروبية، في كتاب، قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1977، ص 317.

²³ - ريتشارد كيرني، دوائر الهرمينوطيقا عن بول ريكور، مرجع سابق، ص 29.

²⁴ - Paul Ricoeur, Philosophie de la volonté, Le volontaire et l'involontaire, Op. Cit, p142

²⁵ - ريتشارد كيرني، دوائر الهرمينوطيقا عن بول ريكور، مرجع سابق، ص 31.

تفسيرا للغة، لأننا ننتمي إلى لغة صاغها وشكلها غيرنا، وعليه فيمكن استرداد الوجود والفكر من اللغة عبر عمليات طويلة من فك الشيفرات.

يكشف التأويل لنا عن الكيفية التي نصح بها مقيدنا دائما بانطولوجيا من الدلالات القبلية، فيما يدعوه ريكور "بذاكرة التراث"، يقول ريتشارد كيرني: "يقرر ريكور أن كتابات هوسرل الأخيرة خير دليل على عدم نضج مثاليته المبكرة، خاصة في كتابه "الأزمة" الذي كتب في منتصف عام 1930 قبل وفاته بقليل عندما أخذ يخطط لأنطولوجيا عالم حياة البين – ذاتية".²⁶ ولقد تأثر ريكور في نقده لمثالية هوسرل بكل من غابريال مارسيل، وكارل ياسبرس (1930-1940)، وكلاهما يمثل وجودية غير ظاهراتية.

- النص الديني وجدلية الفهم والتفسير

1- تاريخية العلاقة: يعد القرن السابع عشر بداية الإشكالية أين تم فهم الظواهر الطبيعية وفق مقولات المنهج العلمي، والبداية كانت على يد فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626) وبعده دافيد هيوم David Hume (1711-1776) صاحب مقالة «رسالة في الطبيعة البشرية»، دعا فيها إلى فهم الظاهرة الانسانية وفق مقولات المنهج التجريبي وتوسيعه ليشمل موضوع الظواهر الانسانية وهو ما جعل أوغست كونت A.Comte (1798-1857) في «دروس في الفلسفة الوضعية Cours de philosophie positive»، يدعو فيه إلى تطبيق قوانين المنهج على الظواهر الاجتماعية ومن ثم على الظاهرة الانسانية عامة،²⁷ وكونت أكد أن البشرية كانت في حالة تجاوز مستمر لذاتها ولطرائق تفكيرها، من هنا طرحت إمكانية فهم الظواهر الانسانية على غرار الظواهر الطبيعية؟ وما يهمننا موقف ريكور من الإشكالية؟

حاول ريكور في ظل الجدل حول علاقة الفهم بالتفسير وضع المقاربة التفسيرية موضع تساؤل الهيرمينوطيقا يقول: "ينبغي القيام بمبادرة لحل المعضلة الأساسية للهيرمينوطيقا المقدمة في هذا الموضوع الأول، لمعرفة المقابلة الهدامة في نظري بين التفسير والفهم".²⁸ ويفرض ريكور المقابلة بين المنهجين ساعيا إلى تأسيس التكامل الجدلي بينهما كما تتكامل الابستمولوجيا والهيرمينوطيقا، لذلك

²⁶ - المرجع نفسه، ص33.

²⁷ - ينظر يمني طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الافاق المستقبلية، عالم المعرفة، الكويت، ص17.

²⁸ - Poule Riecour, Du Texte à l'action, Seuil, 1968. p.83.

نقد غادامير في محاولته الفصل بين المنهجين، لأن الفصل يعني تقسيم المعرفة والوجود إلى قسمين ويصبح قسم من المعرفة والوجود ينتهي إلى فضاء الهيرمينوطيقا أو التأويل، والجزء الآخر ينتهي إلى فضاء الاستيمولوجيا. لكن يرفض ريكور الفصل بينهما لأن الفرق بينهما في المعقولية، وإذا كان الكلاسيكيون قد اهتموا بالجانب الاستيمولوجي مهملين البعد الأنطولوجي لمسألة الفهم كما هو عند دلتاي، الذي يجعل الفهم مرتبطاً بالموضوع، "فإن ريكور يتحدث عن مرحلة سابقة عن فهم الذات للأشياء، وهي مرحلة ما قبل الفهم أي مرحلة وضعية الذات وموقفها من وضعيتها"،²⁹ ومن ثم يحيلنا إلى ضرورة الرجوع إلى الأسس الأنطولوجية للفهم، وهذا ضروري إذا تعلق الأمر بقراءة النص الديني، والقارئ مطالب بوعي المسافة الزمنية أو التاريخية التي تفصله عن لحظة النص. لأن "التفسير يتطلب نظرية كاملة في الإشارة والمعنى، وذلك كما نرى هذا في العقيدة المسيحية للقديس أوغسطين مثلاً. ويمكننا أن نقول بصورة أكثر تحديداً إذا استطاع نص من النصوص أن يحتوي على عدد من المعاني، كأن يكون له معنى تاريخي مثلاً، ومعنى روحي، فيجب اللجوء إلى مفهوم في المعنى أكثر تعقيداً من ذلك الذي يكون للإشارات في المشترك اللفظي والذي يتطلبه منطق البرهنة."³⁰ والتأويل هو محاولة التغلب على التماسف الثقافي والعمل على دمج معنى النص في الفهم الحاضر. كما نجد مثلاً لوثر يقول: "من لا يفهم الأشياء لا يستطيع أن يستخلص معنى الكلمات".³¹

اتخذ الفهم معنى التواصل مع الآخر ومشاركته تجربته الإنسانية، لأن الذات البشرية تملك إمكانية إعادة تجربة الآخر في ذاتها من خلال تمثل تجربتها ومعايشتها من جديد، عبر الإحترام المتبادل، وهو ما يعرف بجذلية الفهم والتفسير فالذات مطالبة بفهم وضعها في العالم وتفسير العلاقة التي تربطها بالعالم. لهذا عمل ريكور على فهم العلاقة في إطار استيمولوجيا العلوم الإنسانية والهيرمينوطيقا، ومن ثم تجاوز إشكالية الثنائية كما سعى إلى التجديد في العلاقة بهدف: "تجديد مفهومي التفسير والتأويل، يؤول إلى التكامل الدقيق والتداخل بينهما".³² جاعلاً التأويل مكون من مكونات التفسير والمقابل الذاتي له، ودخول التأويل فضاء معرفي ما يعني استبعاد الحقيقة المطلقة وكل ادعاء شمولي كلي هو ضرب لغرور المؤرخين. ويرفض ريكور الفصل بين ما هو ذاتي وما هو

²⁹ -Myrian Revanlt dAllonnes et François Azouvi, Paul Ricoeur L'Herne, Op. Cit, p127

³⁰ - بول ريكور، صراع التأويلات، دراسات هيرمينوطيقية، مصدر سابق، ص 34.

³¹ -G.H.Gadamer, Vérité et méthode, Op. Cit. P.191.

³² -P.Ricoeur, Du Texte a l'action, Op. Cit. p.83

موضوعي أو بين التأويل والتفسير، لأن التأويل يجمع بين التفسير والفهم يقول: "إن مصطلح التأويل لا ينبغي أن ينطبق على حالة فهم جزئية منفردة، أعني تعبيرات الحياة المكتوبة، بل على كامل العملية التي تحيط بالتفسير والفهم".³³ ونقد ريكور للمواقف الكلاسيكية مبني على أن الكلاسيكيون لا يفرقون بين الكلام والكتابة، لأن الكلام حوار والحوار لا تظهر فيه العلاقة بين الفهم والتفسير، كما أن الحوار مشروط بالتفاهم بين المتحاورين، أما في حالة النص المكتوب فالقراءة لا تشترط الفهم بل تتجاوزه إلى عملية التفسير، لأن "التفسير يفيد في إعادة بناء النص التاريخي"،³⁴ لذلك يلح ريكور على المسافة الزمنية والثقافية بين القارئ والنص لإدراكه مدى صعوبة بلوغ معنى محدد، لأن المعنى ليس معطى وإنما هو طلب موجه إلى القارئ، لهذا ينبغي الاعتراف بكل القراءات في إطار صراع التأويلات، والنظر للنص الديني: "على أنه تعبير عن تجربة تواصلية جد معقدة بين الإنسان والمطلق وبين الإنسان والإنسان، فهو يعلمنا التواصل من خلال المسافات، وبهذا المعنى، ينبغي فهمه على أنه يعكس تجربة إنسانية في التاريخ".³⁵

إن المسافة التي يطالب بها ريكور الذات القارئة تكون ضرورية حتى في علاقة الذات بذاتها، وذلك من خلال نقد أحكامها الأيديولوجية ومعتقداتها المسبقة، وهنا يستعين ريكور بمبدأ التعليق الفينومينولوجي لهوسرل، وهذا لا يعني أن ريكور يرفض الأيديولوجيا أو يستبعداها من الحياة الواقعية كما فعل ماركس، لكنه ينهنا إلى بعض أدوارها السلبية مثل وظيفة الدمج الاجتماعي l'intégration social، ووظيفة تزييف الوعي، ووظيفة تبرير العنف السلطة،³⁶ إلا أنه وبمجرد الشروع في عملية التفسير تبدأ الأمور تتضح فيسقط الفهم الساذج وتستمر الحقائق، وأول فعل من أفعال الفهم هو التخمين في النص أو معنى النص، لأن المعنى اللفظي للنص لا يتوافق والمعنى العقلي أو قصد النص، والنص يحقق القصد كما قد يلغيه عندما يغيب الصوت (المتكلم)، فيصير النص أخرس، وتنتوثر

³³ -بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ت سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2003، ص121.

³⁴ -Domenico Javalino ,Paul Ricoeur ,Une herméneutique de la condition humaine ,Ed. Ellipses ,Paris. 2002, p34/35

³⁵ -P.Ricoeur ,Du Texte a l'action ,Op. Cit .p.114

³⁶ - Paul Ricoeur ,L'idéologie et L'utopie ,Traduction ,Myriam d'Allonnes et Joel Roman ,Edition du Seuil , Paris, p387

العلاقة بين النص والقارئ.³⁷ والوسائط هي التي تفرض الإقتران بين المنهجين، وهيرمينوطيقا ريكور تنطوي على علم تفسير النصوص القديمة والقواعد الضرورية، ثم عملية الفهم وآلياته الذاتية والموضوعية وكذلك تتضمن هيرمينوطيقا علمية حاملة تسعى إلى فهم العلم في بعده الابدستيمولوجي والانطولوجي، وتصبح عملية تأويل النصوص الدينية عند ريكور مرهونة بتحليل بنيتها للكشف عن نظامها ونسقيتها عبر امتلاك القواعد النحوية والفيلولوجية والقانونية، وبتوظيف جملة المناهج المتاحة، يصير التفسير ابدستيمولوجيا سعيا نحو فهم النص عبر تحليله ونقده.³⁸ لكن ينبغي التساؤل عن الإضافة التي أضافها ريكور لعالم قراءة النص وتحليل الخطاب الديني؟

يشتمل النص عند ريكور على الخطابات المكتوبة أو المدونة، وعملية التدوين هي بمثابة مرحلة ولادة النص وتشكله المادي أو الحسي، وقد ميز ريكور بين الخطاب واللغة متأثرا بينفنيست Émile Benveniste الذي ميز بين لسانيات الخطاب ولسانيات اللغة، على اعتبار أن اللغة محكومة بالعلامات الصوتية كوحدة أساسية في حين الخطاب يتحدد بالجملة،³⁹ والخطاب له بنية زمنية تحدد لها الجمل التي تتحدث عن حوادث معينة، وبالتالي الخطاب يفضي إلى العالم أو إلى خارج ذاته، في حين اللغة كنسق من الرموز والعلامات المجردة مستقلة عن العالم الخارجي، كما ميز ريكور بين السيميائيات كعلم صوري يبحث في العلامات اللغوية وغير اللغوية والدلالات كعلم يعنى بمفهوم المعنى، والتمييز ضروري يقول ريكور: "إن التمييز بين الدلالات والسيميائيات يشكل مفتاح مشكلة اللغة بأسرها"⁴⁰ لأن علم الدلالات علم يفتح الخطاب على المختلف أو المغاير متجاوزا نص الخطاب، كما أن الخطاب له معنى نكتشفه من خلال تساؤلنا حول ماهية الخطاب والمعنى الذي يتضمنه والذي يوحي به؟ لتصبح قيمة النص وغناه مرتبطة بدلالاته، في حين يحيل علم السيميائيات إلى ذاته وإلى الأنظمة الداخلية، وهذا لا يعني أن ريكور قد فضل القراءة الدلالية على المقاربة السيميائية للنص، بل استثمر في التفسير السيميائي الذي بدأ مع دي سوسير في حقل اللغة ثم انفتح على فضاءات أخرى مثل الحكايات الشعبية وعلم القصص والاساطير الدينية مع ليفي ستروس، وبهذا يكون قد استجمع كل

³⁷ - بول ريكور، خطاب التأويل وفائض المعنى، مصدر سابق، ص 122

³⁸ - Vinico BUSACCHI, Pour une Herméneutique critique, Etudes autour de Paul Ricoeur, Op Cit, p244

³⁹ - P.Ricoeur, Du Texte a l'action, Op. Cit. p.116

⁴⁰ - بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، مصدر سابق، ص 33.

المناهج والمقاربات للتمكن من النص، وذلك لإدراكه مدى التأثير الذي تمارسه النصوص على بعضها البعض في إطار ما يعرف بالتناسل *intertextualité*.

تصبح من هذا المنطلق وظيفة التفسير الكشف عن بنية الخطاب وعلى القواعد التي تشكل تلك البنية، وعبر التفسير يمر القارئ إلى امتلاك المعنى، من خلال عملية تفكيك كل بني النص وعلاقاته الداخلية وهذا ما يعرف بالقراءة السيميائية التي تنصب على كل القواعد التي تنسق وحدات النص، وفي عملية التفسير يتم التركيز على الموضوع ويتم الغاء الذات، وبعد عملية التفسير تأتي عملية فهم الذات لنفسها أمام النص، والفهم الجيد مرتبط بالتفسير الجيد يقول ريكور: "اشرح أكثر من أجل فهم أفضل *Expliquer plus pour comprendre mieux*"،⁴¹ وعملية التحول من النص إلى عالم النص هو ما يعرف بالتطور الهرمينوطيقي لدى ريكور.

ويؤكد ريكور على جينالوجيا النص التي تهتم بمختلف المراحل التي تشكل فيها النص بهدف بلوغ أصوله، رغم أنه لا يعترف بإمكانية العودة إلى الأصل الأول واللحظة الأولى لكتابة النص، ومن ثم استبعد إمكانية التعامل مع مصادر النص، لأن ذلك وهم يحيلنا إلى الغاء تاريخية النص، كما استبعد صاحب النص وأبقى على النص المجرد، لأن المؤلف يختفي بمجرد تشكيل النص، كما يميز ريكور بين المتلقي الأول الأصلي والمتلقي من الدرجة الثانية، ومحاولة ريكور تجاوز الأصول لا يعني إلغائها، وإنما إلغاء التصورات الدوغمائية حولها، وإن وجدت فلا بد أن تدعم بحجج وشواهد قوية، وتبقى القراءة التاريخية هي رهان أية دراسة. خاصة إذا ما تعلق الأمر بالنصوص الدينية التي تطرح إشكالية الأصل وإشكالية التدوين أو الكتابة، وإشكالية تلقي الخطاب في اللحظة الأولى، وإشكالية فهمه وتأويله، وإشكالية التباسه بالواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي.⁴²

ب- النص الديني والتفسير: المخطط الدلالي (الفهم): عاد ريكور إلى أعمال أرسطو وكاسيرر ليقف على طبيعة الإشكالات المنهجية التي تطرح أمام المفسر، فلاحظ أن التفسير يشير إلى تعدد المعنى في النص وهذه المعاني متشابكة مع بعضها البعض، وكذلك المعنى الروحي معنى محول كما هو عند أوغسطين، (تحول العلامات) عن المعنى التاريخي والحرفي. مما يعني أن "مشكل علم التفسير تكون

⁴¹ -بول ريكور، بعد طول تأمل، السيرة الذاتية الفكرية، ت فؤاد مليت، مراجعة وتقديم عمر مهيبيل، بالدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص76.

⁴² - بول ريكور، خطاب التأويل وفائض المعنى، مصدر سابق، ص122

في الجزء الأكبر منه، في حرم تفسير الكتابة المقدسة"،⁴³ ليصبح دوره النظر في النصوص والوثائق بإعتبارها تعبير عن تجربة بشرية تم تثبيتها بفعل الكتابة، لكن مفهوم النص يتجاوز مفهوم الكتابة، ومن ثم يقوم التفسير بعملية إعادة بناء السياقات بطريقة عكسية لقوى الحياة في الارتباطات المادية، وفي التسلسلات التاريخية، وعملية التثبيت والموضوعية هي الأخرى أشكال معبرة عن تحول المعنى، " ولقد عالج نيتشه من جانبه القيم بوصفها تعبيرات للقوة ولضعف إرادة القوة التي يجب تأويلها. وإننا لنجد عنده ما هو أكثر من ذلك، فالحياة نفسها إنما هي تأويل. وهكذا تصبح الفلسفة تأويلا للتأويلات".⁴⁴ وتعامل ريكور مع النص الديني على أنه نص كباقي النصوص له بنية تركيبية تساعدنا في عملية تفسيره، لكن عملية التفسير كإجراء علمي يفترض من المفسر ترك مسافة بينه وبين القراءات التي تمت في التاريخ، مما يعني ضرورة الاستعانة بمناهج التاريخ النقدي (les méthodes Histoire critique)، من أجل بلوغ المعنى الموضوعي للنص، ويتأسس علم التفسير الديني عند ريكور على جملة من الإجراءات منها: " التفسير التاريخي النقدي بحسب أنماطه المتعددة، الطريقة السيميائية، صور متعددة للتحليل الأدبي، القراءة القانونية للتناص أو المقاربة النمطية".⁴⁵

حاول ريكور الاستفادة من كل المناهج وتوظيفها في قراءته، لأنه مدرك أن المناهج المذكورة أو التي ذكرها ووظفها ستصبح في حالة حوار، وتمارس النقد على بعضها البعض، لأنها مرتبطة إما بالكلام أو بالكتابة أو باللغة أو بالمعنى أو بالنص، وتعاون كل هذه المناهج تمكن القارئ من فهم النص الديني فهما جيدا. وعليه: " تتمثل قيمة التأويل عند ريكور في قيامه على منظور منهجي ومعرفي ينطلق من دينامية التفاعل بين مختلف فروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية بغية تقديم مقاربات تقبض على الأسئلة الانطولوجية الكبرى، خصوصا مع استقلالية العلوم الإنسانية في النصف الثاني من القرن 19 وبداية القرن العشرين، محاولة بذلك بناء حقلها النظري والمفاهيمي، ولكن الطموحات العلمية والوضعية جعلتها أمام أسئلة ابستمولوجية عميقة. متعلقة أساسا بالحقائق والموضوعية والذاتية..."⁴⁶ وكان يعتقد بول ريكور أن كثرة المناهج يؤدي إلى العلمية متأثرا في ذلك بأبحاث فون

⁴³ -بول ريكور، التفسير محاولة في فرويد، مصدر سابق، ص30.

⁴⁴ - بول ريكور، صراع التأويلات، دراسات هيرمينوطيقية، مصدر سابق، ص 43.

⁴⁵ -François Xavier Amherdt, L'hermeneutique philosophique de Paul Ricoeur, Op. Cit. p386

⁴⁶ -عبد الله عبد اللاوي، ابستمولوجيا التاريخ مداخل منهجية في صناعة المعرفة التاريخية، دار ابن النديم للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 2009، ص119

راد Gerhard Von Rad (1901-1971) الذي اخضع النص الديني (العهد القديم)⁴⁷ للتأويل والقراءة التاريخية النقدية، مستعينا بقواعد البنيوية محددا ثلاث مستويات للنص وهي (الوظائف، الأفعال، السرد)، ومن خلال هذا التصنيف قام فون راد بترتيب الوحدات الصغرى في وحدات كبرى، حتى شكل مايسمى بالمتتالية الكبيرة التي تعبر عن الانسجام بين الوحدات الجزئية والتي تحدد طبيعة الايمان، وبذلك تمكن من كشف بعض العناصر المندسة في القصة مثل حالة خروج المجموعة التشريعية للتوراة من مصر، ونفس المنهج مكن ريكور من اكتشاف فكرة تراتبية الفاعلين في تيولوجيا فون راد أين: "إسرائيل Israëل مأخوذة ككل تحتل دور الفاعل الشامل لكل حركة خلاص والشخصيات الأخرى مثل إبراهيم، موسى، يوسف، القضاة يتوزعون كفاعلين أقل ترتيبا"⁴⁸ وهذا الحضور للشخصيات الفاعلة في القصة ماهو إلا تعبير عن حضور رموز ثقافية كانت فاعلة وغياب رموز أخرى لم تكن في المركز.

وتركيز ريكور على بنية النص اللغوية هدفه التمييز بين النص الموضوعي الذي يسرد أحداثا واقعية، وبين ما تم دسه من خرافة أو أحداث متخيلة، تحت تأثير الأيديولوجيا، لهذا نقد الايديولوجيا في إطار الهيرمينوطيقا في كتابه «محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا L'idéologie et L'utopie» مؤكدا على مبدأ التماسف في كل قراءة لأن: "الهيرمينوطيقا تمكنا من نقد الأيديولوجيا من الداخل"،⁴⁹ ولتجنب تأثير الايديولوجيا ينبغي اختيار طريق المنعطفات.⁵⁰

كما ركز على الجانب التقني في النص الديني مميزا بين الحكاية والاستعارة والحدث، وبين الخرافة والأسطورة والقصة. من أجل بلوغ الفهم الجيد، ويجب أن يتأسس الفهم الجيد على ترك المسافة بين النص وواقع النص، بين القارئ وذاته، بين القارئ وزمن النص، كما ينبغي عدم تجاهل المسافة بين كل الأطراف والعلاقة بين هذه العناصر هي التاريخ، يقول ريكور: "إن التاريخ لا يستطيع أن يقطع مع الفعل الذي يستتبع الفاعلين والأهداف والظروف والتفاعلات والنتائج المقصودة أو غير

⁴⁷ -G. Von Rad, Théologie de l'Ancien Testament, Tome I, Théologie des traditions historiques d'Israël, 1963/ Tome II. 1967 Genève, Labor. Fides.

⁴⁸ -Francois Xavier Amherdt, L'hermeneutique philosophique de Paul Ricoeur, Op. Cit. p400

⁴⁹ -Paul Ricoeur, L'idéologie et L'utopie, Op. Cit. p11

⁵⁰ - بول ريكور، بعد طول تأمل، السيرة الذاتية الفكرية، مصدر سابق، ص 74/73

المقصودة.⁵¹ وعلى القارئ في تعامله مع النص الديني أن ينتبه إلى ما يحيط بالنص من قصص شعبية وعادات وتقاليد اجتماعية، أو الموروث الشفهي الذي يساعد القارئ في فهم النص ومرجعياته الأصلية، والمرجعيات الثانوية على الطريقة البنيوية. لأن النص يصطدم في نظريكور بالعالم الحقيقي لكي يعيد إبداعه وترتيبه من جديد إما بتأكيده أو بنفيه، ومن ثمة فالنص يخلق لدى القارئ حالة من التوتر والقلق ازاء الواقع، وهنا مكن خطورة اللغة، لأن القارئ لا يتواصل مع واقع النص مباشرة باعتباره لم يعد موجودا وإنما يتخيل الواقع الماضي من خلال خطاب التاريخ، فهو يتعامل مع وسائط لبلوغ الحقيقة وهو ما يعرف عند ريكور بابستمولوجيا الفهم، واعتماد الهيرومينوطيقا للوسائط هي محاولة للتحرر من الفينومينولوجيا المثالية، لأن ريكور يؤكد على الطابع اللغوي لكل تجربة انسانية، والادراكات والرغبات والانفعالات كلها تكشف عن نفسها باللغة، وتهدف هيرومينوطيقا ريكور إلى الكشف عن المسكوت عنه في النص الديني أو ما يسميه القوى غير المعترف بها واللامفكر فيها l'impensable، يقول: "ترمي الهيرومينوطيقا إلى إزالة الوهم عن الرمزية من خلال كشف القوى غير المعترف بها المستترة داخلها، وفي الحالة الثانية، تقصد الهيرومينوطيقا إلى إعادة تجميع المعنى الأكثر ثراء وسموا وروحانية."⁵² ومن ثم لا تؤول الهيرومينوطيقا الرموز الثقافية فقط وإنما تؤول النصوص كتجربة لغوية، لهذا طرح ريكور إشكالية تأويل النصوص المكتوبة على حساب الثقافة الشفهية، إلا أن النص يفتح آفاقا للخطاب يقول: "بفضل الكتابة يكتسب الخطاب استقلالا ذاتيا دلاليا ثلاثيا: تجاه قصد المتكلم، وتجاه تلقي حضور بسطاء، وتجاه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية⁵³ التي تنتجها. وبهذا المعنى ينتزع المكتوب نفسه عند حدود الحوار المتواجه ويصبح هو شرط صيرورة الخطاب نصا. ويبقى على الهيرومينوطيقا استكشاف استتبعات صيرورة - النص هذه لاستعمالها في التأويل."⁵⁴

وتمكن ريكور بفعل الجدل الذي أحدثه بين الفهم والتفسير من تجاوز المقاربات المنغلقة التي تختزل الفهم إلى مجرد شرح وتحليل، لأن ربط الفهم بالتفسير ماهو إلا ربط بين الفلسفة والعلوم الإنسانية ليستمر الحوار بينهما، وهذا ما يعرف بالمرحلة الابستمولوجية. وهكذا أكد ريكور على

⁵¹ - بول ريكور، من النص الى الفعل ابحاث التأويل، مصدر سابق، ص 11.

⁵² - المصدر نفسه، ص 23.

⁵⁴ - بول ريكور، من النص الى الفعل ابحاث التأويل، مصدر سابق، ص 24.

القطائع الابستمولوجية les ruptures épistémologiques التي تصاحب المعنى من مرحلة إلى أخرى، لأن المعنى سرعان ما يستقل عن قصدية الكاتب إذا انتقل إلى مرحلة التشخيص في شكل نص، فيستقل عن المرسل إليه الأول، فنجدته يقول: "الصيغة المشتركة التي تشكل النص باعتباره نصا هي أن المعنى المتضمن فيه قد أمسى مستقلا إزاء قصد الكاتب، إزاء حالة الخطاب الأولى والمرسل إليه الأول. وتمثل النية، الوضع والمرسل إليه الاصلي موقع ميلاد النص. منذئذ تفتح إمكانيات تأويل متعددة من طرف النص الذي تحرر هكذا من موقع ميلاده. وفيما وراء تعددية معاني الكلمات في التحدث، تنجلي تعددية معاني النص الذي يدعو إلى قراءة متعددة. إنها لحظة التأويل بالمعنى التقني لتفسير النصوص. هي كذلك الحلقة الهرمينوطيقية بين الفهم المراهن عليه من طرف القارئ واقتراحات المعنى التي فتحها النص نفسه."⁵⁵ ويمكن التعبير عن فعل تحول المعنى في المخطط التالي:

المؤلف الأول (المرسل الأول) ← (مقاصد/معنى) ← كتابة (ميلاد نص) ← المرسل إليه الأول (المتلقي/القارئ) ← تأويل ← (فينومينولوجي/انطولوجي/انثروبولوجي/نفسى/هيرمينوطيقي) ← استقلال المعنى

يبين ريكور في النص أنواع العلاقات بين القارئ والنص وبين النص وصاحبه، ومن ثمة فالتأويل الهرمينوطيقي هو تأويل منفتح لا يمكن أن تحده ذات ما في عصر ما، وأول وظيفة تقوم بها الهرمينوطيقا هي محاولة اختراق النصوص المكتوبة لحصر المعنى، ولأن للنص معنى فهو: "وساطة بين الإنسان والعالم، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان ونفسه، والوساطة بين الإنسان والعالم هي ما ندعوه المرجعية، والوساطة بين الناس هي ما ندعوه بالاتصالية، والوساطة بين الإنسان ونفسه هي ما ندعوه بالفهم الذاتي."⁵⁶ والتأويلية قامت على قلب العلاقة بين المعرفة والذات والتي شُبهت هي الأخرى بثورة كوبرنيكوس. ويذهب ريكور إلى أننا لن نفهم الوجود الإنساني إلا عبر تحليل الرموز والنصوص التي تشهد على ذلك الوجود، ومن خلال القصص والتواريخ نحصل على دليل الممكنات الإنسانية ونجيب على السؤال ما الإنسان؟

⁵⁵ - المصدر نفسه، ص 38.

⁵⁶ - بول ريكور، الوجود والزمان والسرد فلسفة بول ريكور، تحرير ديفيد وورد، ت سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 47/48.

خاتمة:

رؤية بول ريكور التأويلية تشكلت من خلال التفكير مع وضد الفلاسفة، كما تشكلت عبر الحوار المنفتح على كل المناهج والتيارات الفكرية والحقول المعرفية، فنجدته يدعو القارئ لتجنب التحريف إلى ضرورة مقابلة التأويلات بعضها البعض لكي تمارس النقد على بعضها البعض، وهذا الصراع موجود حتى في الكتابات الرسمية والأصلية للنص الديني ومختلف النصوص، والمؤول ينخرط مع النص عبر الأسئلة أو التفكيك أو المخيال، فينتقل القارئ من حالة الفهم إلى التفسير أو من التفسير إلى الفهم، وهذه العملية تجعل التأويل تأويلا احتماليا.

كما اعتمد ريكور القراءة الأركيولوجية لفهم النص الديني، لأن الأركيولوجيا archéologie تمكن القارئ من معرفة مراحل تشكل النص، كما تمكننا من المصادر والوثائق المكتوبة، وتساعد القارئ على معرفة الكيفية التي عالج بها رجال اللاهوت مشكلات عصرهم، والطرائق التي وظفوها، ومن ثمة الاتجاه صوب المعنى الخفي، والأركيولوجيا حركة تراجعية نحو الأصول أو المصادر والأسس الأولى، فهي تضع القارئ أمام جملة من الخطابات في نفس العصر، وأمام جملة من التأويلات لنفس النص. أكد ريكور على أن اللغة هي بوابة البحث عن المعنى الضائع في النصوص التراثية والدينية وغير الدينية، والنصوص كائنات تاريخية تتأثر بالتجربة الإنسانية خلال سيرورتها، مما يعني أن اللغة لها خاصية التوسع والانتشار، وهذا يقتضي اعتماد منهج ابستمولوجيا المعرفة التاريخية التي يمكن أن تتحدى إشكالية الزمن السردي. ينبغي فتح حوار بين كل الحقول المعرفية والمناهج لفهم الإنسان في كليته وفي علاقته مع ذاته ومحيطه.